عناصر الشخصية الأدبية

للأستاذ أنور المعـــداوى

أريد بهذا المقال أن أحدد عناصر الشخصية الأدبية ، وأن أعدد ملامحها العامة ، وأن أرسم خطوطها الرئيسية ...

وإذا ما كان هناك دافع إلى هذا التحديد ، فهو دافع وزن القيم بميزانها الصحيح الدقيق ، ووضع الأمور في موضعها من صدق النظرة ونزاهة القصد وهدى القائمين إلى معالم الطريق .

عناصر الشخصية الأدبية في حاجة إلى تحديد ، بل ما أحوجها إلى كثير من التحديد في هذا الجيل الذى نعيش فيه — إنه جيل تنقصه الأداة وتعوزه الأناة ، ولا يستقيم له الحكم على حقائق الأشياء في الكثير الغالب من الأحيان ، ذلك لأنه يأخذ زاده من الثقافة القاصرة ، ويستمد علمه من القراءة العابرة ، وينساق وراء الرأى ينادى به ويدعو إليه ، بلا تمحيص ولا مراجعة !

أول عنصر من عناصر الشخصية الأدبيـة هو الكرامة العقلية ... وفي ظل هذه الكرامة تحتشد بقية العناصر الأخرى مكتملة ناضجة ، لتصنع الكاتب الحق وتخلق الأديب الكامل . الكرامة العقلية هي أن يحترم الكاتب عقله وعقول الناس ، فلا يقدم إليهم إلا ما يؤمن به إيماناً يقوم على القدر المشترك بين فهم وفهم ، وبين ذوق وذوق ، وبين أفق وأفق ، في مجال التفكير والتعبير ... والكرامة العقلية هي أن يحترم الكاتب قلمه فلا يتجر بفنه ، ولا يهبط به إلى ما دون المستوى اللائق بحرمة الفكر الحر ومنزلة الفن الرفيع ...

ومن الكرامة العقلية ينبع الضمير الأدبى ، ولا وجود لهذا بغير تلك ، لأنها الموجهة له والرقيب عليه ... وفي الضمير الأدبى يتمثل الركن الثاني من أركان الشخصية الأدبية ، ومن التقاء الركنين يتم الاتحاد في الهدف والاتفاق في الغاية ، وإن اتجه كل منهما بعد ذلك في طريق .

أنا لا أنكر أحداً كما أنكر الذين يلتمون عقولهم غير عابئين بيقظة الرأى العام الفني ولا آبهين لسلطانه ، إنهم أشبه بالنعامة حين تخفى رأسها في الرمال لتصبح بمأمن من عين الصياد اليقظ . ولا أرثى لأحد كما أرثى لأولئك المتجرين بالفن لقاء غرض من الأغراض ... إنهم يهونون على أنفسهم ويهونون على الناس !

أما أولئك العلماء بلا ضمير ، فكأنى برابليه كان يعنيهم حين قال : علم بلا ضمير خراب للنفس !

إنك لن تجد في مجال الحكمة الخالدة وتقرير الواقع أصدق ولا أكمل ولا أدق من هذه العبارة . إن رابليه حين نطق بها كان يشرف على الإنسانية من قمة عالية هي قمة الضمير العلمى !

ومن عناصر الشخصية الأدبية أن يستقل الكاتب عن غيره في طبيعة النظرة وأصالة الفكرة وطريقة التعبير ...

ولا نعنى بذلك ألا ينتفع الكاتب برأى لغيره يتسع به أفقه أو تقوم عليه دعامة من دعائم دراسته ... كلا ، وإنما نعنى به ألا يكون مقلداً بغير وعى ، ومردداً بغير فهم ، وبوقاً ينفخ فيه من يشاء ... ألا يكون بتعبير أدق كتلك النباتات الطفيلية التى لا تستطيع أن تصل إلى الضوء والهواء إلا إذا تسلقت الأغصان الشوامخ ؟ !

أنا لا أضيق بشيء كما أضيق بتلك النباتات الطفيلية ، أولئك الذين يسطون على أفكار الغير ، ويعيشون في رحاب الغير ...

ولست أدرى ما هي قيمة العمل الأدبى وما هي جدواه ، إذا لم يستقل صاحبه بملكاته الخاصة ويتفرد بمواهبه الأصيلة ؟ !

ولست أدرى ما هو موقف تلك الفئة الأخرى من أصحاب المقالات المترجمة والكتب المترجمة ؟ أقول لست أدرى ما هو موقفها من موازين الأدب والفن ؟ إنك لا تكاد تقرأ للواحد منهم مقالا إلا وهو منقول من لغة إلى لغة ، ولا كتاباً إلا وهو منقول من اسم إلى اسم ! !

ومن عناصر الشخصية الأدبيـة أن يكون الكاتب واسع الاطلاع رحب الأفق نافذ البصيرة ، وهذا كله لا يتهيأ لصاحبه إلا عن طريق واحـد هو أن يقرأ ويقرأ ويقرأ . . وحسن أن يتخصص الكاتب في ناحية بعينها ، يكب عليها ويفرغ لها ويقتلها بحثاً وتحقيقاً ودراسة ، وأحسن منه أن يقتطع من وقته وجهده ما يتيح له النظر في ألوان أخرى من الثقافات والدراسات ليكون مثقفاً بأوسع معانى الكلمة حين تنطبق على المثقفين ...

أنا لا أفهم أن يقتصر بعض الأدباء على ميدان الأدب وحده دون أن ينظروا إلى صلة الأدب بغيره من ألوان العلم والفن ، إن الأدب ليتصل اتصالا عميقاً بالتصوير والموسيقى حين يلتقى معهما